الفارق ان نزعة الشاعرة هنا ليست دينية مطلقة ، وروحية غير محدودة ، كما هي لدى المتصوفة ، بل نزعتها هذه ردة فعل مرضية مضطربة وقابلة لان تكون متناقضة . فالجسد الذي يدور في توقه الدائم الى الحياة ، دون ان يخرج عن دائرة هذا التوق ، قد ينحرف غيزج في محراب لا علاقة له به ، الا من حيث هو أداة للاذلال الذاتي ، وماسوكية جارحة .

وكما تواجه الشاعرة « الموت » باعتباره قدرا ميتافيزيقيا ، كذلك تواجه الظواهر الإجتماعية ، معتمدة فحسب على هواجسها « الروحية » السجينة في جسدها الهالك . فهي تناجي قوى القضاء الغامض المبهم ، التي تجثم وراء الفضاء :

من يمطر الرزق على ذي الثراء ويمسك الرزق عن المعدم ؟

وهي بالرغم من اعترافها في القصيدة ذاتها على ان الامر يتعلق بظلم البشر في الارض . الا أنها لم تجد وجهة للمناجاة الا فيما « وراء الفضاء » . وهذه الوجهة الماورائية تتكرر في جميع قصائدها ، حتى المتأخرة منها ، والمتصلة بموضوع يعتبر دون شك من أبعد المواضيع عن الرغبة «القدرية» الغامضة ، وهو موضوع الاحتلال العدواني الاسرائيلي، في فلسطين — وسنرجيء التعليق عليه الى حين الاشارة الى مجموعتها « الليل والفرسان » .

ان التناقض النفساني الذي يخلفه توق الجسد الى الحياة ، وانكساراته الناتجة عن الكبت الاجتماعي ، يجد مداره في دائرة « الموت » . هذه الدائرة التي تشكل تطهيرا داخليا سلبيا . ونزعة الشاعرة فدوى هذه تبدو منطقية ، الى أن تبدأ مرحلة استلهامها، كحجة ، من موت أخويها « ابراهيم » و« نمر » ، فتتحول ، حينها ، الى مرحلة «الرثاء»، التقليدي الذي تطمس فيه ذلك الوجع القديم ذا السمة الميتافيزيقية الصرفة . وهذا التحول يتلف ، بوضوح ، امكانية تلك النزعة الى النمو والنضج ، بحيث تستطيع ان تصبح رؤيا فلسفية متكاملة .

لقد اصبحت الشاعرة ، بحجة عائلية ، شاعرة « رثاء » تطمح ان ترث « الخنساء » ، ذلك الارث الذي لا يملك ان يصبح عصريا ، وانتهت فيها تلك « المقدمة » التي كانت ترى فيها الموت — كما يراه الشاعر « ييتس » ليس الا انتقالة من غرفة الى اخرى » . غير ان كونه خاتمة الحياة والوجود المادي وما هو معروف ومدرك ، يفعمه بمغزى هائل .

في مجموعة « أمام الباب المغلق » ، عدد من القصائد الى شقيقها « نمر » ، نستطيع من خلالها ان نتلمس « الموت » الذي كان فيما مضى هاجسا . بالرغم من ان هذه الانعطافة قد بدأت منذ « وحدي مع الايام » وفي القصائد التي قدمتها الى شقيقها « ابراهيم » . وأصبح عاملا وسببا للندب والشكوى . علاماته : المفقود الذي ذهب دون عودة ، والقبر الماثل بصمت ، والمأتم في حضوره المستمر ، والوحشة المتبقية ، حيث لا نصير بعد ولا ظهير ، سوى ذكرى باقية لا تغني :

« آه يا قبرا له اشعاع نور
لا ارى اجمل منه في القبور !
فيك دنياي ، وفي قلبي الكسير
مأتم ما انفك مذ بات لديك
قائما يأخذ منه بالوتين »
« واذا ينزف دمع المقل
يجهش القلب اسى ما يأتلي
نادبا عندك أغلى امل
باكيا فيك نصيري وظهيري